

سئل شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام العالم الرباني والعابد النوراني ابن تيمية الحراني - أيده الله تعالى :-

ما تقول في العرش هل هو كرى أم لا؟ وإذا كان كرى والله من ورائه محيط به بائن عنه، فما فائدة أن العبد يتوجه إلى الله تعالى حين دعائه وعبادته، فيقصد العلو دون غيره، ولا فرق حينئذ وقت الدعاء بين قصد جهة العلو، وغيرها من الجهات التي تحيط بالداعي؟ ومع هذا نجد في قلوبنا قصداً يطلب العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، وقد فطرنا عليها.

وابسط لنا الجواب في ذلك بسطاً شافياً، يزيل الشبهة ويحقق الحق - إن شاء الله - أمام الله النفع بكم وبعلمكم آمين.

فأجاب - رحمه الله تعالى :-

الحمد لله رب العالمين، الجواب عن هذا السؤال بثلاث مقامات: / ٥٤٦/٦

أحدها:

إنه لقائل أن يقول: لم يثبت بدليل يعتمد عليه أن العرش فلك من الأفلاك المستديرة الكرية الشكل، لا بدليل شرعي، ولا بدليل عقلي.

وإنما ذكر هذا طائفة من المتأخرين، الذين نظروا في علم الهيئة وغيرها من أجزاء الفلسفة، فرأوا أن الأفلاك تسعة، وأن التاسع - وهو الأطلس - محيط بها، مستدير كاستدارتها، وهو الذي يحركها الحركة المشرقية، وإن كان لكل فلك حركة تخصه غير هذه الحركة العامة، ثم سمعوا في أخبار الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - ذكر عرش الله، وذكر كرسيه، وذكر السموات السبع، فقالوا بطريق الظن أن العرش هو: الفلك التاسع، لاعتقادهم أنه ليس وراء التاسع شيء، إما مطلقاً وإما أنه ليس وراءه مخلوق.

ثم إن منهم من رأى أن التاسع هو الذي يحرك الأفلاك كلها، فجعلوه مبدأ الحوادث، وزعموا أن الله يحدث فيه ما يقدره في الأرض، أو يحدثه في النفس التي زعموا أنها متعلقة به، أو في العقل الذي زعموا أنه الذي صدر عنه هذا الفلك، وربما سماه بعضهم

الروح، وربما جعل بعضهم النفس هي : الروح، وربما جعل بعضهم النفس هي : اللوح المحفوظ، كما جعل العقل هو : القلم.

وتارة يجعلون الروح هو العقل الفعال العاشر الذي لفلك القمر/، والنفس المتعلقة ٥٤٧/٦ به، وربما جعلوا ذلك بالنسبة إلى الحق سبحانه كالدماغ بالنسبة إلى الإنسان، يقدر فيه ما يفعله قبل أن يكون، إلى غير ذلك من المقالات التي قد شرحناها، وبيننا فسادها في غير هذا الموضوع.

ومنهم من يدعي أنه علم ذلك بطريق الكشف والمشاهدة، ويكون كاذبًا فيما يدعيه وإنما أخذ ذلك عن هؤلاء المتفلسفة تقليدًا لهم، أو موافقة لهم على طريقتهم الفاسدة، كما فعل أصحاب رسائل إخوان الصفا وأمثالهم.

وقد يتمثل في نفسه ما تقلده عن غيره فيظنه كشفًا، كما يتخيل النصراني التثليث الذي يعتقد، وقد يرى ذلك في منامه فيظنه كشفًا، وإنما هو تخيل لما اعتقده، وكثير من أرباب الاعتقادات الفاسدة إذا ارتاضوا صقلت الرياضة نفسهم، فتمثل لهم اعتقاداتهم، فيظنونها كشفًا، وقد بسطنا الكلام على هذا في غير هذا الموضوع.

والمقصود هنا أن ما ذكره من أن العرش هو الفلك التاسع قد يقال: إنه ليس لهم عليه دليل لا عقلي، ولا شرعي.

أما العقلي : فإن أئمة الفلاسفة مصرحون بأنه لم يقدّم عندهم دليل على أنه ليس وراء الفلك التاسع شيء آخر، بل ولا قام عندهم دليل على أن الأفلاك هي تسعة فقط، بل يجوز أن تكون أكثر من ذلك، ولكن دلتهم الحركات المختلفة، والكسوفات ونحو ذلك على ما ذكره، وما لم يكن لهم دليل على ثبوته فهم لا يعلمون لا ثبوته ولا انتفاءه. / ٥٤٨/٦

مثال ذلك : أنهم علموا أن هذا الكوكب تحت هذا، بأن السفلي يكشف العلوي من غير عكس، فاستدلوا بذلك على أنه في فلك فوقه، كما استدلوا بالحركات المختلفة، على أن الأفلاك مختلفة، حتى جعلوا في الفلك الواحد عدة أفلاك، كفلك التدوير وغيره.

فأما ما كان موجودًا فوق هذا ولم يكن لهم ما يستدلون به على ثبوته : فهم لا يعلمون نفيه ولا إثباته بطريقتهم.

وكذلك قول القائل : إن حركة التاسع مبدأ الحوادث خطأ، وضلال على أصولهم، فإنهم يقولون: إن الثامن له حركة تخصه بما فيه من الثوابت، ولتلك الحركات قطبان غير قطبي التاسع، وكذلك السابع، والسادس.

وإذا كان لكل فلك حركة تخصه - والحركات المختلفة هي سبب الأشكال الحادثة المختلفة الفلكية، وتلك الأشكال سبب الحوادث السفلية - كانت حركة التاسع جزء السبب، كحركة غيره.

فالأشكال الحادثة في الفلك - لمقارنة الكوكب الكوكب ، في درجة واحدة . ومقابلته له إذا كان بينهما نصف الفلك ، وهو مائة وثمانون درجة . وثلثه له إذا كان بينهما ثلث الفلك وهو مائة وعشرون درجة ، وتربيعه له إذا كان بينهما ربعة تسعون درجة ، وتسديسه له إذا كان بينهما سدس الفلك ستون درجة ، وأمثال ذلك من الأشكال - إنما حدثت بحركات مختلفة ، وكل حركة ليست عين الأخرى ، إذ حركة الثامن التي تخصه ليست عين / حركة التاسع ، وإن كان تابعاً له في الحركة الكلية ، كالإنسان المتحرك في السفينة إلى خلاف حركتها . ٥٤٩/٦

وكذلك حركة السابع التي تخصه ، ليست عن التاسع ولا عن الثامن ، وكذلك سائر الأفلاك . فإن حركة كل واحد التي تخصه ليست عما فوقه من الأفلاك ، فكيف يجوز أن يجعل مبدأ الحوادث كلها مجرد حركة التاسع !! كما زعمه من ظن أن العرش كثيف والفلك التاسع عندهم بسيط متشابه الأجزاء ، لا اختلاف فيه أصلاً ، فكيف يكون سبباً لأمر مختلفة ، لا باعتبار القوابل وأسباب آخر؟

ولكن هم قوم ضالون ، يجعلونه مع هذا ثلاثمائة وستين درجة ، ويجعلون لكل درجة من الأثر ما يخالف الأخرى ، لا باختلاف القوابل ، كمن يجيء إلى ماء واحد فيجعل لبعض جزئيه من الأثر ما يخالف الآخر ، لا بحسب القوابل ؛ بل يجعل أحد أجزائه مسخناً ، والآخر مبرداً ، والآخر مسعداً ، والآخر مشقياً ، وهذا مما يعلمون هم وكل عاقل أنه باطل وضلال .

وإذا كان هؤلاء ليس عندهم ما ينفي وجود شيء آخر فوق الأفلاك التسعة ، كان الجزم بأن ما أخبرت به الرسل هو أن العرش هو الفلك التاسع رجماً بالغيب ، وقولاً بلا علم .

هذا كله بتقدير ثبوت الأفلاك التسعة على المشهور عند أهل الهيئة ، إذ في ذلك من النزاع والاضطراب ، وفي أدلة ذلك ما ليس هذا موضعه ، وإنما نتكلم على / هذا التقدير ، وأيضاً : فالأفلاك في أشكالها ، وإحاطة بعضها ببعض من جنس واحد ؛ فنسبة السابع إلى السادس ، كنسبة السادس إلى الخامس ، وإذا كان هناك فلك تاسع فنسبته إلى الثامن كنسبة الثامن إلى السابع . ٥٥٠/٦

وأما العرش فالأخبار تدل على مباينته لغيره من المخلوقات، وأنه ليس نسبته إلى بعضها كنسبة بعضها إلى بعض، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَيَجْمَلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، فأخبر أن للعرش حملة اليوم ويوم القيامة، وأن حملته ومن حوله يسبحون ويستغفرون للمؤمنين.

ومعلوم أن قيام فلك من الأفلاك - بقدره الله تعالى - كقيام سائر الأفلاك، لا فرق في ذلك بين فلك وفلك، وإن قدر أن لبعضها ملائكة في نفس الأمر تحملها، فحكمه حكم نظيره، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَةً مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ الآية [الزمر: ٧٥]. فذكر هنا أن الملائكة تحف من حول العرش، وذكر في موضع آخر أن له حملة، وجمع في موضع ثالث بين حملته ومن حوله، فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾. وأيضاً، فقد أخبر أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧].

٥٥١/٦

وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره، عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ أنه قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض»، وفي رواية له: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء»، وفي رواية لغيره صحيحة: «كان الله ولم يكن شيء معه، وكان عرشه على الماء، ثم كتب في الذكر كل شيء»<sup>(١)</sup> وثبت في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء»<sup>(٢)</sup> وهذا التقدير بعد وجود العرش وقبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

وهو - سبحانه وتعالى - متمدح بأنه ذو العرش، كقوله سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ . يَوْمَ هُمْ بَدْرُوعٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ . ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ . فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٤ - ١٦]، وقد قرئ ﴿الْمَجِيدُ﴾ بالرفع صفة لله، وقرئ بالخفض صفة للعرش. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ

(١) البخاري في بدء الخلق (٣١٩١) وأحد ٤ / ٤٣١.

(٢) مسلم في القدر (٢٦٥٣ / ١٦) والترمذي في القدر (٢١٥٦).

السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ ﴿ [المؤمنون: ٨٦] ،  
 ٥٥٢/٦ [٨٧] ، فوصف العرش بأنه مجيد وأنه عظيم ، وقال/ تعالى: ﴿ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا  
 إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٦] ، فوصفه بأنه كريم أيضًا .

وكذلك في الصحيحين عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ كان يقول  
 عند الكرب : « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله  
 إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم »<sup>(١)</sup> ، فوصفه في الحديث بأنه  
 عظيم ، وكريم أيضًا .

فقول القائل المنازع : إن نسبة الفلك الأعلى إلى ما دونه كنسبة الآخر إلى ما دونه ، لو  
 كان العرش منه جنس الأفلاك ، لكانت نسبته إلى ما دونه كنسبة الآخر إلى ما دونه ،  
 وهذا لا يوجب خروجه عن الجنس وتخصيصه بالذكر ، كما لم يوجب ذلك تخصيص  
 سماء دون سماء ، وإن كانت العليا بالنسبة إلى السفلى كالفلك على قول هؤلاء ، وإنما  
 امتاز عما دونه بكونه أكبر ، كما تمتاز السماء العليا عن الدنيا ، بل نسبة السماء إلى  
 الهواء ، ونسبة الهواء إلى الماء والأرض . كنسبة فلك إلى فلك ، ومع هذا فلم يخص  
 واحدًا من هذه الأجناس عما يليه بالذكر ، ولا بوصفه بالكرم والمجد والعظمة .

وقد علم أنه ليس سببًا لذواتها ولا لحركاتها ، بل لها حركات تخصها ، فلا يجوز أن  
 يقال : حركته هي سبب الحوادث ، بل إن كانت حركة الأفلاك سببًا للحوادث ،  
 فحركات غيره التي تخصه أكثر ، ولا يلزم من كونه محيطًا بها أن يكون أعظم من  
 ٤٥٣/٦ مجموعها ، إلا إذا كان له من الغلظ ما يقاوم ذلك ، وإلا فمن المعلوم أن الغليظ إذا كان  
 متقاربًا ، فمجموع الداخل أعظم من المحيط ، بل قد يكون بقدره أضعافًا ، بل الحركات  
 المختلفة التي ليست عن حركته أكثر ، لكن حركته تشملها كلها .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن جويرية بنت الحارث ، أن النبي ﷺ دخل عليها ،  
 وكانت تسبح بالحصى من صلاة الصبح إلى وقت الضحى ، فقال : « لقد قلت بعدك أربع  
 كلمات لو وزنت بما قلت لوزنتهن : سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله زنة عرشه ،  
 سبحان الله رضي نفسه ، سبحان الله مداد كلماته »<sup>(٢)</sup> ، فهذا يبين أن زنة العرش أثقل  
 الأوزان ، وهم يقولون : أن الفلك التاسع لا خفيف ولا ثقيل ، بل يدل على أنه وحده

(١) البخاري في الدعوات (٦٣٤٦) ، وفي التوحيد (٧٤٣١) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٨٣/٢٧٣٠) .

(٢) ومسلم في الذكر والدعاء (٧٩/٢٧٢٦) .

أثقل ما يمثل به، كما أن عدد المخلوقات أكثر ما يمثل به .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه، فقال: يا محمد، رجل من أصحابك لطم وجهي، فقال النبي ﷺ: «ادعوه» فدعوه، فقال: «لم لطمت وجهه؟» فقال: يا رسول الله، إني مررت بالسوق وهو يقول: والذي اصطفى موسى على البشر! فقلت: يا خبيث! وعلى محمد؟ فأخذتني غصبة فلطمته، فقال النبي ﷺ: لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى أخذًا بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبل أم جوزي بصعقته<sup>(١)</sup> فهذا فيه بيان أن للعرش قوائم، وجاء ذكر القائمة بلفظ الساق، والأقوال متشابهة في هذا الباب . /

٥٥٤/٦

وقد أخرجنا في الصحيحين عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ»<sup>(٢)</sup> قال: فقال رجل لجابر: إن البراء يقول: اهتز السرير، قال: إنه كان بين هذين الحيين الأوس والخزرج ضغائن، سمعت نبي الله ﷺ يقول: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ» ورواه مسلم في صحيحه من حديث أنس أن النبي ﷺ قال وجنازة سعد موضوعة: «اهتز لها عرش الرحمن»<sup>(٣)</sup>.

وعندهم أن حركة الفلك التاسع دائمة متشابهة، ومن تأول ذلك على أن المراد به استبشار حملة العرش وفرحهم، فلا بد له من دليل على ما قال، كما ذكره أبو الحسن الطبري وغيره، مع أن سياق الحديث ولفظه ينفي هذا الاحتمال.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة، وآتى الزكاة وصام رمضان، كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها». قالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس بذلك؟ قال: إن في الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»<sup>(٤)</sup>.

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد، ٥٥٥/٦ من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا، وجبت له الجنة» فعجب لها أبو سعيد

(١) البخاري في الأنبياء (٣٣٩٨)، ومسلم في الفضائل (١٦٢/٢٣٧٤).

(٢) البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٠٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (١٢٣/٢٤٦٦)، (١٢٤).

(٣) مسلم في فضائل الصحابة (١٢٥/٢٤٦٧).

(٤) البخاري في التوحيد (٧٤٢٣).

فقال: أَعَدَّهَا عَلِيٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ففعل ، قال : «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» قال : وما هي يا رسول الله ؟ قال : الجهاد في سبيل الله»<sup>(١)</sup> .

وفي صحيح البخاري : أن أم الربيع بنت البراء - وهي أم حارثة بن سُرَاقَة - أتت النبي ﷺ فقالت : يا نبي الله ، ألا تحدثني عن حارثة - وكان قتل يوم بدر أصابه سَهْمٌ غَزَبٌ - فإن كان في الجنة صبرت ، وإن كان في غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء . قال : «يا أم حارثة ، إنها جنان في الجنة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»<sup>(٢)</sup> .

فهذا قد بين في الحديث الأول : أن العرش فوق الفردوس الذي هو أوسط الجنة وأعلاها ، وأن في الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها . والحديث الثاني : يوافق في وصف الدرج المائة . والحديث الثالث : يوافق في أن الفردوس أعلاها .

وإذا كان العرش فوق الفردوس ، فلنقل أن يقول : إذا كان كذلك كان في هذا من العلو والارتفاع ما لا يعلم بالهيئة ، إذ لا يعلم بالحساب أن بين التاسع والأول كما بين السماء والأرض مائة مرة ، وعندهم أن التاسع ملاصق للثامن ، فهذا قد بين أن العرش فوق الفردوس ، الذي هو أوسط الجنة وأعلاها .

٥٥٦/٦ وفي حديث أبي ذر المشهور قال : قلت : يا رسول الله ، أيما أنزل عليك / أعظم؟ قال : «آية الكرسي» ثم قال : «يا أبا ذر ، ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحَلَقَة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة» ، والحديث له طرق ، وقد رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه ، وأحمد في المسند وغيرهما<sup>(٣)</sup> .

وقد استدل من استدل على أن العرش مقبب بالحديث الذي في سنن أبي داود وغيره عن جبير بن مطعم قال : أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال : يا رسول الله ، جهدت الأنفس ، وجاع العيال ، وهلك المال ، فادع الله لنا ، فإننا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك ، فسيح رسول الله ﷺ حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، وقال : «ويحك ! أتدري ما تقول؟ إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ، إن الله على عرشه ، وإن عرشه على سمواته وأرضه هكذا - وقال بأصابعه مثل القبعة» - وفي

(١) مسلم في الإمارة (١١٦/١٨٨٤) .

(٢) البخاري في الجهاد (٢٨٠٩) .

وقوله : سَهْمٌ غَزَبٌ أي لا يعرف راميه . انظر : النهاية ٣/٣٥٠ .

(٣) ابن حبان في البر والإحسان (٣٦٢) «إحسان» وتهذيب تاريخ دمشق ٦ / ٣٥٦ .

لفظ : « وإن عرشه فوق سمواته ، وسمواته فوق أرضه هكذا وقال بأصابعه مثل القبة »<sup>(١)</sup> .

وهذا الحديث - وإن دل على التقبيب ، وكذلك قوله عن الفردوس أنها أوسط الجنة وأعلاها ، مع قوله : إن سقفاها عرش الرحمن ، وأن فوقها عرش الرحمن ، والأوسط لا يكون الأعلى إلا في المستدير ، فهذا - لا يدل على أنه فلك من الأفلاك ، بل إذا قدر أنه فوق الأفلاك كلها أمكن هذا فيه سواء قال القائل : إنه محيط بالأفلاك ، أو قال : إنه فوقها وليس محيطاً بها ، كما أن وجه الأرض فوق النصف الأعلى من الأرض ، وإن لم يكن محيطاً بذلك . /

٥٥٧/٦

وقد قال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القبة ، ومعلوم أن الفلك مستدير مثل ذلك ، لكن لفظ القبة يستلزم استدارة من العلو ، ولا يستلزم استدارة من جميع الجوانب إلا بدليل منفصل .

ولفظ الفلك يدل على الاستدارة مطلقاً ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٣] ، وقوله تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] ، يقتضى أنها في فلك مستدير مطلقاً ، كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : في فلكة مثل فلكة المغزل .

وأما لفظ القبة ، فإنه لا يتعرض لهذا المعنى ، لا بنفي ولا إثبات ، لكن يدل على الاستدارة من العلو ، كالقبة الموضوعية على الأرض .

وقد قال بعضهم : إن الأفلاك غير السموات ، لكن رد عليه غيره هذا القول ، بأن الله تعالى قال : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح : ١٥ ، ١٦] ، فأخبر أنه جعل القمر فيهن ، وقد أخبر أنه في الفلك ، وليس هذا موضع بسط الكلام في هذا .

وتحقيق الأمر فيه ، وبيان أن ما علم بالحساب - علماً صحيحاً - لا يناق ما جاء به السمع ، وإن العلوم السمعية الصحيحة لا تناق معقولاً صحيحاً ، إذ قد بسطنا الكلام على هذا وأمثاله في غير هذا الموضوع ، فإن ذلك يحتاج إليه / في هذا ونظائره مما قد أشكل على ٥٥٨/٦ كثير من الناس ، حيث يرون ما يقال : إنه معلوم بالعقل ، مخالفاً لما يقال إنه معلوم بالسمع ، فأوجب ذلك إن كذبت كل طائفة بما لم تحط بعلمه ، حتى آل الأمر بقوم من أهل الكلام إلى أن تكلموا في معارضة الفلاسفة في « الأفلاك » بكلام ليس معهم به حجة ، لا

(١) أبو داود في السنة (٤٧٢٦) . وضعه الألباني

من شرع ولا من عقل، وظنوا أن ذلك الكلام من نصر الشريعة، وكان ما جحدوه معلومًا بالأدلة الشرعية أيضًا.

وأما المتفلسفة وأتباعهم، فغايتهم أن يستدلوا بما شاهدوه من الحسيات، ولا يعلمون ما وراء ذلك، مثل أن يعلموا أن البخار المتصاعد ينعقد سحبًا، وأن السحاب إذا اصطك حدث عنه صوت، ونحو ذلك، لكن علمهم بهذا كعلمهم بأن المني يصير في الرحم، لكن ما الموجب لأن يكون المني المشابه الأجزاء تخلق منه هذه الأعضاء المختلفة، والمنافع المختلفة، على هذا الترتيب المحكم المتقن الذي فيه من الحكمة والرحمة ما بهر الألباب.

وكذلك ما الموجب لأن يكون هذا الهواء، أو البخار منعقدًا سحبًا مقدرًا بقدر مخصوص في وقت مخصوص على مكان مختص به؟ وينزل على قوم عند حاجتهم إليه فيسقيهم بقدر الحاجة لا يزيد فيهلكوا ولا ينقص فيعوزوا؟ وما الموجب لأن يساق إلى الأرض الجرز التي لا تمطر، أو تمطر مطرًا لا يغيثها - كأرض مصر إذ كان المطر القليل لا يكفيها، والكثير يهدم أبنيتها - قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧]. ٥٥٩/٦

وكذلك السحاب المتحرك، وقد علم أن كل حركة فإما أن تكون قسرية وهي تابعة للقاسر، أو طبيعية. وإنما تكون إذا خرج المطبوع عن مركزه فيطلب عوده إليه، أو إرادية، وهي الأصل، فجميع الحركات تابعة للحركة الإرادية التي تصدر عن ملائكة الله تعالى، التي هي ﴿فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، و﴿فَالْمَقْسِمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤]، وغير ذلك مما أخبر الله به عن الملائكة، وفي المعقول ما يصدق ذلك.

فالكلام في هذا وأمثاله له موضع غير هذا.

والمقصود هنا أن نبين أن ما ذكر في السؤال زائل على كل تقدير، فيكون الكلام في الجواب مبنيًا على حجج علمية لا تقليدية، ولا مسلمة، وإذا بينا حصول الجواب على كل تقدير - كما سنوضحه - لم يضرنا بعد ذلك أن يكون بعض التقديرات هو الواقع - وإن كنا نعلم ذلك - لكن تحرير الجواب على تقدير دون تقدير، وإثبات ذلك فيه طول لا يحتاج إليه هنا؛ فإن الجواب إذا كان حاصلًا على كل تقدير كان أحسن وأوجز.

### المقام الثاني :

أن يقال: العرش سواء كان هو الفلك التاسع، أو جسمًا محيطًا بالفلك التاسع، أو كان فوقه من جهة وجه الأرض غير محيط به، أو قيل فيه غير ذلك، فيجب أن يعلم أن العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى الخالق تعالى في غاية الصغر،/ كما قال تعالى: ﴿وَمَا

قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ [ الزمر: ٦٧ ] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : «يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة ، ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض؟»<sup>(١)</sup> .

وفي الصحيحين - واللفظ لمسلم - عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «يطوي الله السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون؟»<sup>(٢)</sup> .

وفي لفظ في الصحيح عن عبد الله بن مِقْسَمٍ : أنه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يحكي أن النبي ﷺ قال : «يأخذ الله سمواته وأرضه بيده ، ويقول : أنا الملك ويقبض أصابعه ويبسطها : أنا الملك» ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه ، حتى إني أقول : أساقط هو برسول الله ﷺ؟!<sup>(٣)</sup> .

٥٦١/٦

وفي لفظ قال : رأيت رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول : «يأخذ الجبار سمواته وأرضه ، وقبض بيده وجعل يقبضها ويبسطها ويقول : أنا الرحمن ، أنا الملك ، أنا القدوس ، أنا السلام ، أنا المؤمن ، أنا المهيمن ، أنا العزيز ، أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تكن شيئاً ، أنا الذي أعدتها ، أين المتكبرون؟ أين الجبارون؟» وفي لفظ : «أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» ويميل رسول الله ﷺ على يمينه ، وعلى شماله ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه ، حتى إني لأقول : أساقط هو برسول الله ﷺ؟!<sup>(٤)</sup> .

والحديث مروى في الصحيح والمسانيد وغيرها بألفاظ يصدق بعضها بعضاً ، وفي بعض ألفاظه قال : قرأ على المنبر : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ الآية [ الزمر : ٦٧ ] .

(١) البخاري في الرقاق (٦٥١٩) ، وفي التوحيد (٧٣٨٢) ، ومسلم في صفات المنافقين (٢٣/٢٧٨٧) .  
في المطبوعة تكرر لفظ الحديث عن عبد الله عمر ، وهو خطأ ، لأنه لم يرو في الصحيحين بهذا الإسناد ، ولعله ناتج عن اضطراب في الطباعة ولذلك حذفناه .

(٢) البخاري في التوحيد (٧٤١٢) ، ومسلم في صفات المنافقين (٢٤/٢٧٨٨) .

(٣) مسلم في صفات المنافقين (٢٥/٢٧٨٨) .

(٤) ابن ماجه في المقدمة (١٩٨) ، وفي الزهد (٤٢٧٥) .

قال: «مطوية في كفه يرمي بها كما يرمي الغلام بالكرة» وفي لفظ: «ياخذ الجبار سمواته وأرضه بيده فيجعلها في كفه، ثم يقول بهما هكذا كما تقول الصبيان بالكرة: أنا الله الواحد!»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن عباس: يقبض الله عليهما فما ترى طرفاهما بيده، وفي لفظ عنه: «ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن، إلا كخردلة في يد أحدكم»<sup>(٢)</sup>، وهذه الآثار معروفة في كتب الحديث.

٥٦٢/٦ وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: أتى النبي ﷺ / رجل من اليهود فقال: يا محمد، إن الله يجعل السموات على أصبع، والأرضين على أصبع، والجبال على أصبع، والماء والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، فيهزهن، فيقول: أنا الملك، أنا الملك، قال: فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الخبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرَهُ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾<sup>(٣)</sup> الآية [الزمر: ٦٧].

ففي هذه الآية والأحاديث الصحيحة - المفسرة لها المستفيضة التي اتفق أهل العلم على صحتها وتلقيها بالقبول - ما يبين أن السموات والأرض وما بينهما بالنسبة إلى عظمة الله تعالى، أصغر من أن تكون مع قبضه لها إلا كالشئ الصغير في يد أحدنا، حتى يدحوها كما تدحى الكرة.

قال عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون الإمام نظير مالك - في كلامه المشهور الذي رد فيه على الجهمية ومن خالفها ومن أول كلامه قال -: فأما الذي جحد ما وصف الرب من نفسه تعميماً وتكلفاً، فقد استهوته الشياطين في الأرض حيران، فصار يستدل بزعمه على جحد ما وصف الرب وسمى من نفسه، بأن قال: لا بد إن كان له كذا من أن يكون له كذا، فعمي عن البين بالخفي، فجحد ما سمي الرب من نفسه، بصمت الرب عما لم يسم منها، فلم يزل يملي له الشيطان حتى جحد قول الله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، فقال: لا يراه أحد يوم القيامة، فجحد - والله - أفضل كرامة الله التي أكرم بها أولياءه يوم القيامة، من النظر إلى وجهه ونضرته / إياهم: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ﴾ [القمر: ٥٥]، وقد قضى أنهم لا يموتون، فهم بالنظر إليه ينضرون.

(١) ابن جرير ٢٤ / ١٧ . (٢) الدر المنثور ٥ / ٣٣٦ ، وابن جرير ٢٤ / ١٧ .

(٣) البخاري في التفسير (٤٨١١) ، ومسلم في صفات المنافقين (١٩-١٢) .

إلى أن قال: وإنما جحد رؤية الله يوم القيامة إقامة للحجة الضالة المضلة؛ لأنه قد عرف أنه إذا تجلى لهم يوم القيامة، رأوا منه ما كانوا به قبل ذلك مؤمنين، وكان له جاحداً. وقال المسلمون: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا. قال: «فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟» قالوا: لا. قال: «فإنكم ترون ربكم كذلك»<sup>(١)</sup>.

وقال رسول الله ﷺ: «لا تمتلئ النار حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول: قط، قط، وينزوي بعضها إلى بعض»<sup>(٢)</sup>، وقال لثابت بن قيس: «قد ضحكك الله مما فعلت بضيفك البارحة»<sup>(٣)</sup>، وقال - فيما بلغنا عنه -: «إن الله يضحك من أزلُّكم وقنوطكم وسرعة إجابتكم»، وقال له رجل من العرب: إن ربنا ليضحك؟ قال: «نعم» قال: لن نعدم من رب يضحك خيراً<sup>(٤)</sup>. في أشباه لهذا مما لم نحصه.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقال: ﴿وَلَتُصْنَعَنَّ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]، وقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْكَ﴾ [ص: ٧٥]، وقال: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحٰنَهُ وَعَنَّا عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

٥٦٤/٦

فوالله ما دلهم على عظم ما وصف به نفسه، وما تحيط به قبضته، إلا صغر نظيرها منهم عندهم إن ذلك الذي ألقى في روعهم، وخلق على معرفته قلوبهم فما وصف الله من نفسه وسماه على لسان رسوله سميناه كما سماه، ولم نتكلف منه علم ماسواه، لا هذا، ولا هذا، لا نجحد ما وصف، ولا نتكلف معرفة ما لم يصف انتهى. وإذا كان كذلك، فإذا قدر أن المخلوقات كالكرة، وهذا قبضه لها ورميه بها، وإنما بين لنا من عظمتها وصف المخلوقات بالنسبة إليه ما يعقل نظيره منا.

ثم الذي في القرآن والحديث يبين أنه إن شاء قبضها وفعل بها ما ذكر كما يفعل ذلك في يوم القيامة، وإن شاء لم يفعل ذلك، فهو قادر على أن يقبضها ويدحوها كالكرة، وفي ذلك من الإحاطة بها ما لا يخفى، وإن شاء لم يفعل ذلك، وبكل حال فهو مباين لها ليس بمحايت لها.

(١) سبق تخريجه ص ٦٠٠.

(٢) البخاري في التوحيد (٧٤٤٩) ومسلم في الجنة (٣٥/٢٨٤٦).

(٣) البخاري في مناقب الأنصار (٣٧٩٨).

(٤) ابن ماجه في المقدمة (١٨١) بنحوه، وأحمد ٤/١١، ١٢.

ومن المعلوم أن الواحد منا - ولله المثل الأعلى - إذا كان عنده خردلة، إن شاء قبضها فأحاطت بها قبضته، وإن شاء لم يقبضها بل جعلها تحته، فهو في الحالتين مباين لها، وسواء قدر أن العرش هو محيط بالمخلوقات - كإحاطة الكرة بما فيها - أو قيل: إنه فوقها وليس محيطًا بها، كوجه الأرض الذي نحن عليه بالنسبة إلى جوفها، وكالقبة بالنسبة إلى ما تحتها، أو غير ذلك.

فعلى التقديرين، يكون العرش فوق المخلوقات، والخالق - سبحانه وتعالى - فوقه، ٥٦٥/٦ والعبد في توجهه إلى الله يقصد العلو دون التحت، وتمام هذا بيان: /

### المقام الثالث:

وهو أن نقول: لا يخلو إما أن يكون العرش كريا كالأفلاك، ويكون محيطًا بها، وإما أن يكون فوقها وليس هو كريا، فإن كان الأول، فمن المعلوم باتفاق من يعلم هذا أن الأفلاك مستديرة كرية الشكل، وأن الجهة العليا هي جهة المحيط، وهي المحذب، وأن الجهة السفلى هو المركز، وليس للأفلاك إلا جهتان: العلو والسفل فقط.

وأما الجهات الست فهي الحيوان، فإن له ست جوانب، يؤم جهة فتكون أمامه، ويخلف أخرى فتكون خلفه، وجهة تحاذى يمينه، وجهة تحاذى شماله، وجهة تحاذى رأسه، وجهة تحاذى رجله، وليس لهذه الجهات الست في نفسها صفة لازمة، بل هي بحسب النسبة والإضافة، فيكون يمين هذا ما يكون شمال هذا، ويكون أمام هذا ما يكون خلف هذا، ويكون فوق هذا ما يكون تحت هذا.

لكن جهة العلو والسفل للأفلاك لا تتغير، فالمحيط هو العلو والمركز هو السفلى، مع أن وجه الأرض التي وضعها الله للأنام، وأرساها بالجبال، هو الذي عليه الناس والبهائم والشجر والنبات، والجبال والأنهار الجارية.

فأما الناحية الأخرى من الأرض فبالبحر محيط بها، وليس هناك شيء من الأدميين ٥٦٦/٦ وما يتبعهم، ولو قدر أن هناك أحدًا لكان على ظهر الأرض ولم يكن/ من في هذه الجهة تحت من في هذه الجهة، ولا من في هذه تحت من في هذه، كما أن الأفلاك محيطة بالمركز، وليس أحد جانبي الفلك تحت الآخر، ولا القطب الشمالي تحت الجنوبي، ولا بالعكس.

وإن كان الشمالي هو الظاهر لنا فوق الأرض وارتفاعه بحسب بعد الناس عن خط الاستواء، فما كان بعده عن خط الاستواء ثلاثين درجة مثلاً كان ارتفاع القطب عنده ثلاثين

درجة، وهو الذي يسمى عرض البلد، فكما أن جوانب الأرض المحيطة بها وجوانب  
الفلك المستديرة ليس بعضها فوق بعض ولا تحته، فكذلك من يكون على الأرض من  
الحيوان والنبات والأثقال لا يقال: إنه تحت أولئك، وإنما هذا خيال يتخيله الإنسان،  
وهو تحت إضافي؛ كما لو كانت نملة تمشي تحت سقف فالسقف فوقها، وإن كانت  
رجلاها تحاذيه.

وكذلك من علق منكوسا فإنه تحت السماء، وإن كانت رجاله تلي السماء، وكذلك  
يتوهم الإنسان إذا كان في أحد جانبي الأرض، أو الفلك أن الجانب الآخر تحته، وهذا  
أمر لا يتنازع فيه اثنان، ممن يقول: إن الأفلاك مستديرة.

واستدارة الأفلاك - كما أنه قول أهل الهيئة والحساب - فهو الذي عليه علماء  
المسلمين، كما ذكره أبو الحسن بن المنادي، وأبو محمد بن حزم، وأبو الفرج بن  
الجوزي وغيرهم أنه متفق عليه بين علماء المسلمين، وقد قال/ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ  
الْيَلَّ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، قال ابن عباس: فلكة  
مثل فلكة المغزل.

والفلك في اللغة: هو المستدير، ومنه قولهم: تفلك ثدي الجارية إذا استدار، وكل  
من يعلم أن الأفلاك مستديرة يعلم أن المحيط هو العالي على المركز من كل جانب، ومن  
توهم أن من يكون في الفلك من ناحية يكون تحته من في الفلك من الناحية الأخرى في  
نفس الأمر، فهو متوهم عندهم.

وإذا كان الأمر كذلك، فإذا قدر أن العرش مستدير محيط بالمخلوقات كان هو  
أعلاها، وسقفها - وهو فوقها - مطلقا، فلا يتوجه إليه، وإلى ما فوقه الإنسان إلا من  
العلو، لا من جهاته الباقية أصلا.

ومن توجه إلى الفلك التاسع أو الثامن أو غيره من الأفلاك من غير جهة العلو، كان  
جاهلا باتفاق العقلاء، فكيف بالتوجه إلى العرش أو إلى ما فوقه وغاية ما يقدر أن يكون  
كرى الشكل، والله تعالى محيط بالمخلوقات كلها إحاطة تليق بجلاله، فإن السموات  
السبع والأرض في يده أصغر من الحمصة في يد أحدنا.

وأما قول القائل: إذا كان كريا والله من ورائه محيط به بائن عنه، فما فائدة أن العبد  
يتوجه إلى الله حين دعائه وعبادته؟ فيقصد العلو دون التحت، فلا فرق حينئذ وقت  
الدعاء بين قصد جهة العلو وغيرها من الجهات التي تحيط/ بالداعي، ومع هذا نجد في ٥٦٨/٦  
قلوبنا قصدا يطلب العلو، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فأخبرونا عن هذه الضرورة التي  
نجدها في قلوبنا، وقد فطرنا عليها.

فيقال له : هذا السؤال إنما ورد لتوهم المتوهم أن نصف الفلك يكون تحت الأرض ،  
وتحت ما على وجه الأرض من الآدميين والبهائم ، وهذا غلط عظيم ، فلو كان الفلك  
تحت الأرض من جهة لكان تحتها من كل جهة ، فكان يلزم أن يكون الفلك تحت الأرض  
مطلقاً ، وهذا قلب للحقائق ، إذ الفلك هو فوق الأرض مطلقاً .

وأهل الهيئة يقولون : لو أن الأرض مخروقة إلى ناحية أرجلنا والقي في الخرق شيء  
ثقيل - كالحجر ونحوه - لكان ينتهي إلى المركز ، حتى لو ألقى من تلك الناحية حجر آخر  
لالتقيا جميعاً في المركز ، ولو قدر أن إنسانين التقيا في المركز بدل الحجرين لالتقت  
رجلاههما ولم يكن أحدهما تحت صاحبه ، بل كلاهما فوق المركز ، وكلاهما تحت الفلك ،  
كالمشرق والمغرب ، فإنه لو قدر أن رجلاً بالمشرق في السماء أو الأرض ورجلاً بالمغرب  
في السماء أو الأرض ، لم يكن أحدهما تحت الآخر ، وسواء كان رأسه أو رجلاه أو  
بطنه أو ظهره أو جانبه مما يلي السماء أو مما يلي الأرض ، وإذا كان مطلوب أحدهما ما  
فوق الفلك لم يطلبه إلا من الجهة العليا ، لم يطلبه من جهة رجله أو يمينه أو يساره  
لوجهين :

أحدهما : أن مطلوبه من الجهة العليا أقرب إليه من جميع الجهات ، فلو قدر رجل أو  
ملك يصعد إلى السماء ، أو إلى ما فوق ، كان صعوده مما يلي رأسه / أقرب إذا أمكنه  
ذلك ، ولا يقول عاقل : إنه يحرق الأرض ثم يصعد من تلك الناحية ، ولا إنه يذهب  
يميناً أو شمالاً ، أو أماماً أو خلفاً ، إلى حيث أمكن من الأرض ثم يصعد ؛ لأنه أي  
مكان ذهب إليه كان بمنزلة مكانه أو هو دونه ، وكان الفلك فوقه ، فيكون ذهابه إلى  
الجهات الخمس تطويلاً وتعباً من غير فائدة .

ولو أن رجلاً أراد أن يخاطب الشمس والقمر فإنه لا يخاطبه إلا من الجهة العليا ، مع  
أن الشمس والقمر قد تشرق وقد تغرب ، فتتحرف عن سمت الرأس ، فكيف بمن هو  
فوق كل شيء دائماً لا يأفل ولا يغيب سبحانه وتعالى ؟

وكما أن الحركة كحركة الحجر تطلب مركزها بأقصر طريق - وهو الخط المستقيم -  
فالطلب الإرادي الذي يقوم بقلوب العباد كيف يعدل عن الصراط المستقيم القريب ، إلى  
طريق منحرف طويل ، والله تعالى فطر عباده على الصحة والاستقامة ، إلا من اجتالته  
الشياطين فأخرجته عن فطرته التي فطره عليها .

الوجه الثاني : أنه إذا قصد السفلى بلا علو كان ينتهي قصده إلى المركز وأن قصده أمامه  
أو ورائه أو يمينه أو يساره ، من غير قصد العلو ، كان منتهى قصده أجزاء الهواء ، فلا بد له

من قصد العلو ضرورة ، سواء قصد مع ذلك هذه الجهات أو لم يقصدها .  
ولو فرض أنه قال : أقصده من اليمين مع العلو ، أو من السفلى مع العلو ، كان هذا بمنزلة من يقول : أريد أن أحج من المغرب ، فأذهب إلى خراسان ، ثم أذهب إلى مكة ، بل بمنزلة من يقول : أصعد إلى الأفلاك ، فأنزل في الأرض / ، ثم أصعد إلى الفلك من ٥٧٠/٦ الناحية الأخرى ، فهذا وإن كان ممكناً في المقدور ، لكنه مستحيل من جهة امتناع إرادة القاصد له ، وهو مخالف للفطرة ، فإن القاصد يطلب مقصوده بأقرب طريق ، لا سيما إذا كان مقصوده معبوده الذي يعبد ويتوكل عليه ، وإذا توجه إليه على غير الصراط المستقيم كان سيره منكوساً معكوساً .

وأيضاً ، فإن هذا يجمع في سيره وقصده بين النفي والإثبات ، بين أن يتقرب إلى المقصود ويتباعد عنه ، ويريد وينفر عنه ، فإنه إذا توجه إليه من الوجه الذي هو عنه أبعد وأقصى وعدل عن الوجه الأقرب الأدنى ، كان جامعاً بين قصدين متناقضين ، فلا يكون قصده له تاماً ، إذ القصد التام ينفي نقيضه وضده ، وهذا معلوم بالفطرة .

فإن الشخص إذا كان يحب النبي ﷺ محبة تامة ويقصده أو يحب غيره ممن يحب - سواء كانت محبته محمودة أو مذمومة - متى كانت المحبة تامة ، وطلب المحبوب طلبه من أقرب طريق يصل إليه ، بخلاف ما إذا كانت المحبة مترددة مثل : أن يحب ما تكره محبته في الدين ، فتبقى شهوته تدعوه إلى قصده ، وعقله ينهاه عن ذلك ، فتراه يقصده من طريق بعيد ، كما تقول العامة : رجل إلى قدام ، ورجل إلى خلف .

وكذلك إذا كان في دينه نقص ، وعقله يأمره بقصد المسجد أو الجهاد أو غير ذلك من القصود التي تحب في الدين وتكرهها النفس ، فإنه يبقى قاصداً لذلك من طريق بعيد متباطئاً في السير ، وهذا كله معلوم بالفطرة . / ٥٧١/٦

وكذلك إذا لم يكن القاصد يريد الذهاب بنفسه ، بل يريد خطاب المقصود ودعائه ونحو ذلك ، فإنه يخاطبه من أقرب جهة يسمع دعاءه منها ، وينال به مقصوده إذا كان القصد تاماً .

ولو كان رجل في مكان عال ، وآخر يناديه ؛ لتوجه إليه وناداه ، ولو حط رأسه في بئر وناداه بحيث يسمع صوته لكان هذا ممكناً ، لكن ليس في الفطرة أن يفعل ذلك من يكون قصده إسماعه من غير مصلحة راجحة ، ولا يفعل نحو ذلك إلا عند ضعف القصد ونحوه .

وحديث الإدلاء الذي روى من حديث أبي هريرة وأبي ذر - رضي الله عنهما - قد رواه الترمذي وغيره<sup>(١)</sup>، من حديث الحسن البصري عن أبي هريرة وهو منقطع، فإن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، ولكن يقويه حديث أبي ذر المرفوع، فإن كان ثابتاً فمعناه موافق لهذا، فإن قوله: «لو أدلى أحدكم بحبل لهبط على الله» إنما هو تقدير مفروض، أي لو وقع الإدلاء لوقع عليه، لكنه لا يمكن أن يدلي أحد على الله شيئاً؛ لأنه عال بالذات وإذا أهبط شيء إلى جهة الأرض وقف في المركز ولم يصعد إلى الجهة الأخرى، لكن بتقدير فرض الإدلاء، يكون ما ذكر من الجزء.

فهكذا ما ذكره السائل: إذا قدر أن العبد يقصده من تلك الجهة. كان هو - سبحانه - يسمع كلامه، وكان متوجهاً إليه بقلبه، لكن هذا مما تمنع منه الفطرة؛ لأن قصد الشيء ٥٧٢/٦ القصد التام يناقى قصد ضده، فكما أن الجهة العليا بالذات تنافي / الجهة السفلى فكذلك قصد الأعلى بالذات يناقى قصده من أسفل، وكما أن ما يهبط إلى جوف الأرض يمتنع صعوده إلى تلك الناحية - لأنها عالية - فترد الهابط بعلوها، كما أن الجهة العليا من عندنا ترد ما يصعد إليها من الثقيل، فلا يصعد الثقيل إلا برفع يرفعه يدافع به ما في قوته من الهبوط، فكذلك ما يهبط من أعلى الأرض إلى أسفلها - وهو المركز - لا يصعد من هناك إلى ذلك الوجه إلا برفع يرفعه، يدافع به ما في قوته من الهبوط إلى المركز، فإن قدر أن الدافع أقوى كان صاعداً به إلى الفلك من تلك الناحية، وصعد به إلى الله، وإنما يسمى هبوطاً باعتبار ما في أذهان المخاطبين أن ما يحاذي أرجلهم يكون هابطاً، ويسمى هبوطاً مع تسمية إهباطه إدلاء، وهو إنما يكون إدلاء حقيقياً إلى المركز، ومن هناك إنما يكون مداً للحبل، والدلو، لا إدلاء له، لكن الجزء والشرط مقدران لا محققان.

فإنه قال: لو أدلى لهبط؛ أي لو فرض أن هناك إدلاء لفرض أن هناك هبوطاً، وهو يكون إدلاء وهبوطاً إذا قدر أن السموات تحت الأرض وهذا التقدير منتف، ولكن فائدته بيان الإحاطة والعلو من كل جانب، وهذا المفروض ممتنع في حقنا لا نقدر عليه، فلا يتصور أن يدلي ولا يتصور أن يهبط على الله شيء لكن الله قادر على أن يخرق من هنا إلى هناك بحبل، ولكن لا يكون في حقه إدلاء، فلا يكون في حقه هبوطاً عليه، كما لو خرق بحبل من القطب إلى القطب، أو من مشرق الشمس إلى مغربها، / وقد رنا أن الحبل ٥٧٣/٦ مر في وسط الأرض، فإن الله قادر على ذلك كله، ولا فرق بالنسبة إليه على هذا التقدير من أن يخرق من جانب اليمين منا إلى جانب اليسار، أو من جهة أمامنا إلى جهة خلفنا، أو من جهة رؤوسنا إلى جهة أرجلنا إذا مر الحبل بالأرض، فعلى كل تقدير قد خرق

(١) الترمذي في تفسير القرآن (٣٢٩٨) وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه»، وأحمد ٢/٣٧٠.

بالحبل من جانب المحيط إلى جانبه الآخر، مع خرق المركز ، وبتقدير إحاطة قبضته  
بالمسوات والأرض، فالحبل الذي قدر أنه خرق به العالم وصل إليه، ولا يسمى شيء  
من ذلك بالنسبة إليه إدلاء ولا هبوطاً.

وأما بالنسبة إلينا فإن ما تحت أرجلنا تحت لنا، وما فوق رؤوسنا فوق لنا، وما ندليه  
من ناحية رؤوسنا إلى ناحية أرجلنا نتخيل أنه هابط ، فإذا قدر أن أحدنا أدلى بحبل كان  
هابطاً على ما هناك، لكن هذا تقدير ممتنع في حقنا، والمقصود به بيان إحاطة الخالق  
سبحانه وتعالى، كما بين أنه يقبض السموات ويطوي الأرض ونحو ذلك مما فيه بيان  
إحاطته بالمخلوقات.

ولهذا قرأ في تمام هذا الحديث : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ  
عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]. وهذا كله على تقدير صحته، فإن الترمذي لما رواه قال: وفسره  
بعض أهل الحديث بأنه هبط على علم الله<sup>(١)</sup>، وبعض الحلولية والاتحادية يظن أن في  
هذا الحديث ما يدل على قولهم الباطل ، وهو أنه حال بذاته في كل مكان، وأن وجوده  
وجود الأمكنة ونحو ذلك.

والتحقيق : أن الحديث لا يدل على شيء من ذلك إن كان ثابتاً، فإن قوله: / «لو ٥٧٤/٦  
أدلى بحبل لهبط» يدل على أنه ليس في المدلى ولا في الحبل، ولا في الدلو ولا في غير  
ذلك، وإنما تقتضي أنه من تلك الناحية، وكذلك تأويله بالعلم تأويل ظاهر الفساد، من  
جنس تأويلات الجهمية، بل بتقدير ثبوته يكون دالاً على الإحاطة.

والإحاطة قد علم أن الله قادر عليها، وعلم أنها تكون يوم القيامة بالكتاب والسنة،  
وليس في إثباتها في الجملة ما يخالف العقل ولا الشرع، لكن لا نتكلم إلا بما نعلم،  
وما لا نعلمه أمسكنا عنه، وما كان مقدمة دليله مشكوكاً فيها عند بعض الناس ، كان  
حقه أن يشك فيه، حتى يتبين له الحق، وإلا فليست عما لم يعلم.

وإذا تبين هذا ، فكذلك قاصده يقصده إلى تلك الناحية، ولو فرض أنا فعلناه لكنا  
قاصدين له على هذا التقدير، لكن قصدنا له بالقصد إلى تلك الجهة ممتنع في حقنا ؛ لأن  
القصد التام الجازم يوجب طلب المقصود بحسب الإمكان.

ولهذا قد بينا في غير هذا الموضع - لما تكلمنا على تنازع الناس في النية المجردة عن  
الفعل هل يعاقب عليها أم لا يعاقب؟ بينا - أن الإرادة الجازمة توجب أن يفعل المرید ما

(١) انظر : تعليقه على الحديث رقم (٣٢٩٨).

يقدر عليه من المراد، ومتى لم يفعل مقدوره لم تكن إرادته جازمة، بل يكون هما ، ومن هم بسيئة فلم يفعلها لم تكتب عليه، فإن تركها لله كتبت له حسنة .

ولهذا وقع الفرق بين هم يوسف - عليه السلام - هم امرأة العزيز، كما قال/ الإمام أحمد: الهم همان: هم خطرات وهم إصرار. فيوسف - عليه السلام - هم هما تركه لله فأثيب عليه، وتلك همت هم إصرار ففعلت ما قدرت عليه من تحصيل مرادها، وإن لم يحصل لها المطلوب.

والذين قالوا: يعاقب بالإرادة ، احتجوا بقوله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: يا رسول الله ، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال : «إنه أراد قتل صاحبه»، وفي رواية : «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»<sup>(١)</sup>. فهذا أراد إرادة جازمة، وفعل ما يقدر عليه، وإن لم يدرك مطلوبه، فهو بمنزلة امرأة العزيز، فمتى كان القصد جازماً، لزم أن يفعل القاصد ما يقدر عليه من حصول المقصود ، فإذا كان قادراً على حصول مقصوده بطريق مستقيم امتنع مع القصد التام أن يحصله بطريق معكوس من بعيد.

لهذا امتنع في فعل العباد عند ضرورتهم ، ودعائهم لله - تعالى - وتمام قصدهم له ألا يتوجهوا إليه إلا توجهاً مستقيماً، فيتوجهون إلى العلو دون سائر الجهات؛ لأنه الصراط المستقيم ، القريب . وما سواه فيه من البعد والانحراف والطول ما فيه، فمع القصد التام الذي هو حال الداعي العابد، والسائل المضطر يمتنع أن يتوجه إليه إلا إلى العلو، ويمتنع أن يتوجه إليه إلى جهة أخرى، كما يمتنع أن يبدل بحبل يهبط عليه، فهذا هذا ، والله أعلم .

وأما من جهة الشريعة فإن الرسل - صلوات الله عليهم - بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتبديل الفطرة وتغييرها، قال ﷺ في الحديث/ المتفق عليه : «كل مولود يولد على الفطرة، فأبوه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟»<sup>(٢)</sup>.

وقال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، فجاءت الشريعة في العبادة والدعاء بما يوافق الفطرة ، بخلاف ما عليه أهل الضلال من المشركين والصابئين

(١) النسائي في تحريم الدماء (٤١١٨) ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٦٤) قال البوصيري في الزوائد : «إسناده صحيح ، ورجاله ثقات» .

(٢) البخارى فى الجنائز (١٣٨٥) ومسلم فى القدر (٢٦٥٨ / ٢٢) .

المتفلسفة وغيرهم ، فإنهم غيروا الفطرة في العلم والإرادة جميعًا وخالفوا العقل والنقل ، كما قد بسطناه في غير هذا الموضع .

وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه : أن النبي ﷺ قال : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصقن قبل وجهه ، فإن الله قبل وجهه ، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكًا ، ولكن عن يساره أو تحت قدمه » ، وفي رواية : « إنه إذن أن يبصق في ثوبه »<sup>(١)</sup> .

وفي حديث أبي رزين المشهور ، الذي رواه عن النبي ﷺ : لما أخبر النبي ﷺ أنه ما من أحد إلا سيخلوا به ربه . فقال له أبو رزين : كيف يسعنا يا رسول الله وهو واحد ، ونحن جميع ؟ فقال : « سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله ! هذا القمر آية من آيات الله كلكم يراه مخلصًا به ، فالله أكبر »<sup>(٢)</sup> .

ومن المعلوم أن من توجه إلى القمر وخطابه - إذا قدر أن يخاطبه / - لا يتوجه إليه إلا ٥٧٧/٦ بوجهه مع كونه فوقه ، فهو مستقبل له بوجهه مع كونه فوقه ، ومن الممتنع في الفطرة أن يستدبره ويخاطبه مع قصده التام له ، وإن كان ذلك ممكنًا ، وإنما يفعل ذلك من ليس مقصوده مخاطبته ، كما يفعل من ليس مقصوده التوجه إلى شخص بخطاب ، فيعرض عنه بوجهه ويخاطب غيره ، لسمع هو الخطاب ، فأما مع زوال المانع فإنما يتوجه إليه ، فكذلك العبد إذا قام إلى الصلاة ، فإنه يستقبل ربه وهو فوقه ، فيدعوه من تلقائه لا من يمينه ولا من شماله ، ويدعوه من العلو لا من السفلى ، كما إذا قدر أنه يخاطب القمر .

وقد ثبت في الصحيحين أنه قال : « ليتتهين أقوام عن رفع أبصارهم في الصلاة أو لا ترجع إليهم أبصارهم »<sup>(٣)</sup> ، واتفق العلماء على أن رفع المصلي بصره إلى السماء منهي عنه ، وروى أحمد عن محمد بن سيرين : أن النبي ﷺ كان يرفع بصره في الصلاة إلى السماء حتى أنزل الله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ »<sup>(٤)</sup> [المؤمنون : ١ ، ٢] فكان بصره لا يجاوز موضع سجوده ، فهذا مما جاءت به الشريعة تكميلًا للفطرة ؛ لأن الداعي السائل الذي يؤمر بالخشوع وهو الذل والسكوت - لا يناسب حاله أن ينظر إلى ناحية من يدعوه ويسأله بل يناسب حاله الإطراق ، وغض بصره أمامه .

وليس نهي المصلي عن رفع بصره في الصلاة ردًا على أهل الإثبات الذين يقولون : إنه على العرش ، كما يظنه بعض جهال الجهمية ، فإن الجهمية عندهم لا فرق/ بين العرش ٥٧٨/٦

(١) البخاري في الصلاة ( ٤١٣ ) ومسلم في المساجد ( ٥٥١ / ٥٤ ) .

(٢) أبو داود في السنة ( ٤٧٣١ ) ، وابن ماجه في المقدمة ( ١٨٠ ) ، وأحمد ١١/٤ ، ١٢ .

(٣) البخاري في الأذان ( ٧٥٠ ) عن أنس بن مالك ، ومسلم في الصلاة ( ١١٧/٤٢٨ ) عن جابر بن سمرة .

(٤) ابن جرير في التفسير ٣/١٨ ، والبيهقي في السنن الكبرى ٢/٢٨٣ ، والسيوطي في الدر المنثور ٣/٥ .

وقعر البحر، فالجميع سواء، ولو كان كذلك لم ينه عن رفع البصر إلى جهة ويؤمر برده إلى أخرى ، لأن هذه وهذه عند الجهمية سواء .

وأيضًا ، فلو كان الأمر كذلك لكان النهي عن رفع البصر شاملاً لجميع أحوال العبد، وقد قال تعالى : ﴿قَدْ زُرَى تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٤] ، فليس العبد ينهى عن رفع بصره مطلقًا، وإنما ينهى في الوقت الذي يؤمر فيه بالخشوع؛ لأن خفض البصر من تمام الخشوع، كما قال تعالى : ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ [القمر: ٧] ، وقال تعالى : ﴿وَرَبَّهُمْ يُعْرِضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الْذَّلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ حَفِيٍّ﴾ [الشورى : ٤٥] .

وأيضًا ، فلو كان النهي عن رفع البصر إلى السماء وليس في السماء إله ، لكان لا فرق بين رفعه إلى السماء ورده إلى جميع الجهات ، ولو كان مقصوده أن ينهي الناس أن يعتقدوا أن الله في السماء ، أو يقصدوا بقلوبهم التوجه إلى العلو ، ليين لهم ذلك كما بين لهم سائر الأحكام ، فكيف وليس في كتاب الله ، ولا سنة رسوله ، ولا في قول سلف الأمة حرف واحد يذكر فيه أنه ليس الله فوق العرش أو أنه ليس فوق السماء ، أو أنه لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا محايث له ولا مباين له ، أو أنه لا يقصد العبد إذا دعاه العلو دون سائر الجهات؟! بل جميع ما يقوله الجهمية من النفي - ويزعمون أنه الحق - ليس معهم به حرف من كتاب الله ولا سنة رسوله ، ولا قول أحد من سلف الأمة وأئمتها ، بل الكتاب والسنة وأقوال السلف والأئمة ٥٧٩/٦ مملوءة بما يدل على نقيض قولهم ، وهم يقولون :/

إن ظاهر ذلك كفر، فنؤول ، أو نفوض ، فعلى قولهم ليس في الكتاب والسنة ، وأقوال السلف والأئمة في هذا الباب إلا ما ظاهره الكفر، وليس فيها من الإيمان في هذا الباب شيء، والسلب الذي يزعمون أنه الحق - الذي يجب على المؤمن أو خواص المؤمنين اعتقاده عندهم - لم ينطق به رسول ، ولا نبي ، ولا أحد من ورثة الأنبياء والمرسلين، والذي نطقت به الأنبياء وورثتهم ليس عندهم هو الحق، بل هو مخالف للحق في الظاهر، بل وحقاقهم يعلمون أنه مخالف للحق في الظاهر والباطن .

لكن هؤلاء منهم من يزعم أن الأنبياء لم يمكنهم أن يخاطبوا الناس إلا بخلاف الحق الباطن، فلبسوا وكذبوا لمصلحة العامة، فيقال لهم: فهلا نطقوا بالباطن لخواصهم الأذكياء الفضلاء إن كان ما يزعمونه حقًا؟

وقد علم أن خواص الرسل هم على الإثبات - أيضًا - وأنه لم ينطق بالنفي أحد منهم إلا أن يكذب على أحدهم ، كما يقال عن عمر: أن النبي ﷺ وأبا بكر كانا يتحدثان وكنت كالزنجي بينهما، وهذا مختلف باتفاق أهل العلم، وكذلك ما نقل عن علي وأهل

بيته: أن عندهم علماً باطنًا يخالف الظاهر الذي عند جمهور الأمة، وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن علي - رضي الله عنه - أنه لم يكن عندهم من النبي ﷺ سر ليس عند الناس، ولا كتاب مكتوب إلا ما كان في الصحيفة، وفيها: الديات، وفِكَاك الأسير وألا يقتل مسلم بكافر/ (١).

٥٨٠/٦

ثم إنه من المعلوم أن من جعله الله هاديًا مبلغًا بلسان عربي مبين، إذا كان لا يتكلم قط إلا بما يخالف الحق الباطن الحقيقي، فهو إلى الضلال والتدليس أقرب منه إلى الهدى والبيان، وبسط الرد عليهم له موضع غير هذا. والمقصود أن ماجاء عن النبي ﷺ في هذا الباب وغيره كله حق يصدق بعضه بعضًا، وهو موافق لفطرة الخلائق، وما جعل فيهم من العقول الصريحة، والقصود الصحيحة، لا يخالف العقل الصريح، ولا القصد الصحيح، ولا الفطرة المستقيمة، ولا النقل الصحيح الثابت عن رسول الله ﷺ.

وإنما يظن تعارضها: من صدق بباطل من النقول، أو فهم منه ما لم يدل عليه، أو اعتقد شيئًا ظنه من العقليات وهو من الجهليات، أو من الكشوفات وهو من الكشوفات - إن كان ذلك معارضًا لمقول صحيح - وإلا عارض بالعقل الصريح، أو الكشف الصحيح، ما يظنه منقولاً عن النبي ﷺ، ويكون كذبًا عليه، أو ما يظنه لفظًا دالا على شيء ولا يكون دالا عليه، كما ذكروه في قوله ﷺ: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله وقبل يمينه» (٢)؛ حيث ظنوا أن هذا وأمثاله يحتاج إلى التأويل، وهذا غلط منهم - لو كان هذا اللفظ ثابتًا عن النبي ﷺ - فإن هذا اللفظ صريح في أن الحجر ليس هو من صفات الله، إذ قال: هو يمين الله في الأرض فتقيده بالأرض يدل على أنه ليس هو يمينه على الإطلاق، فلا يكون اليد ٥٨١/٦ الحقيقية، وقوله: «فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله وقبل يمينه» صريح في أن مصافحه ومقبله ليس مصافحًا لله ولا مقبلًا ليمينه؛ لأن المشبه ليس هو المشبه به، وقد أتى بقوله: «فكأنما»، وهي صريحة في التشبيه، وإذا كان اللفظ صريحًا في أنه جعل بمنزلة اليمين، لا أنه نفس اليمين كان من اعتقد أن ظاهره أنه حقيقة اليمين قائلاً للكذب الميين.

فهذا كله بتقدير أن يكون العرش كرى الشكل، سواء كان هو الفلك التاسع أو غير الفلك التاسع، قد تبين أن سطحه هو سقف المخلوقات، وهو العالي عليها من جميع الجوانب، وأنه لا يجوز أن يكون شيء مما في السماء والأرض فوقه، وأن القاصد إلى ما

(١) البخاري في العلم (١١١).

(٢) الجامع الصغير للسيوطي (٣٨٠٤) وأشار لضعفه.

فوق العرش - بهذا التقدير - إنما يقصد إلى العلو، لا يجوز في الفطرة ولا في الشرعة - مع تمام قصده - أن يقصد جهة أخرى من جهاته الست، بل هو أيضاً يستقبله بوجهه مع كونه أعلى منه، كما ضربه النبي ﷺ مثلاً من المثل بالقمر - ولله المثل الأعلى - وبين أن مثل هذا إذا جاز في القمر - وهو آية من آيات الله تعالى - فالخالق أعلى وأعظم .

وأما إذا قدر أن العرش ليس كرى الشكل، بل هو فوق العالم من الجهة التي هي وجه الأرض، وأنه فوق الأفلاك الكرية، كما أن وجه الأرض الموضوع للأنام فوق نصف الأرض الكري، أو غير ذلك من المقادير التي يقدر فيها أن العرش فوق ما سواه وليس كرى الشكل، فعلى كل تقدير لا نتوجه إلى الله إلا إلى العلو لا إلى غير ذلك من

٥٨٢/٦ الجهات . /

فقد ظهر أنه - على كل تقدير - لا يجوز أن يكون التوجه إلى الله إلا إلى العلو، مع كونه على عرشه مبايناً لخلقه، وسواء قدر مع ذلك أنه محيط بالمخلوقات - كما يحيط بها إذا كانت في قبضته - أو قدر مع ذلك أنه فوقها من غير أن يقبضها ويحيط بها، فهو على التقديرين يكون فوقها مبايناً لها، فقد تبين أنه على هذا التقدير في الخالق وعلى هذا التقدير في العرش، لا يلزم شيء من المحذور والتناقض، وهذا يزيل كل شبهة، وإنما تنشأ الشبهة في اعتقادين فاسدين .

أحدهما: أن يظن أن العرش إذا كان كرياً والله فوقه، وجب أن يكون الله كرياً، ثم يعتقد أنه إذا كان كرياً فيصح التوجه إلى ما هو كرى - كالفلك التاسع - من جميع الجهات، وكل من هذين الاعتقادين خطأ وضلال، فإن الله مع كونه فوق العرش، ومع القول بأن العرش كرى - سواء كان هو التاسع أو غيره - لا يجوز أن يظن أنه مشابه للأفلاك في أشكالها، كما لا يجوز أن يظن أنه مشابه لها في أقدارها، ولا في صفاتها - سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً - بل قد تبين أنه أعظم وأكبر من أن تكون المخلوقات عنده بمنزلة داخل الفلك في الفلك، وإنما عنده أصغر من الحمصة والفلفة ونحو ذلك في يد أحدنا، فإذا كانت الحمصة أو الفلفة . بل الدرهم والدينار، أو الكرة التي يلعب بها الصبيان ونحو ذلك، في يد الإنسان أو تحته أو نحو ذلك، هل يتصور عاقل إذا استشعر علو الإنسان على ذلك وإحاطته به أن يكون الإنسان كالفلك؟ والله - ولله المثل الأعلى - أعظم من أن يظن ذلك به، وإنما يظنه / الذين ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] .

وكذلك اعتقادهم الثاني: وهو أن ما كان فلکاً فإنه يصح التوجه إليه من الجهات الست خطأ باتفاق أهل العقل، الذين يعلمون الهيئة، وأهل العقل الذين يعلمون أن

القصد الجازم يوجب فعل المقصود بحسب الإمكان.

لقد تبين أن كل واحد من المقدمتين خطأ في العقل والشرع، وأنه لا يجوز أن تتوجه القلوب إليه إلا إلى العلو، لا إلى غيره من الجهات على كل تقدير يفرض من التقديرات سواء كان العرش هو الفلك التاسع أو غيره، سواء كان محيطًا بالفلك كروي الشكل أو كان فوقه من غير أن يكون كرويًا، سواء كان الخالق - سبحانه - محيطًا بالمخلوقات كما يحيط بها في قبضته، أو كان فوقها من جهة العلو منا التي تلي رؤوسنا، دون الجهة الأخرى.

فعلى أي تقدير فرض، كان كل من مقدمتي السؤال باطلة، وكان الله - تعالى - إذا دعوناه، إنما ندعوه بقصد العلو دون غيره، كما فطرنا على ذلك.

٥٨٤/٦

وبهذا يظهر الجواب عن السؤال من جوه متعددة، والله أعلم. /

سئل - رحمه الله - : هل العرش والكرسي موجودان ، أم مجاز؟ وهل مذهب أهل السنة على أن الله تعالى كلم موسى شفاهما منه إليه بلا واسطة ؟ وهل الذي رآه موسى كان نورًا أم نارًا؟ .

فأجاب - رضي الله عنه - :

الحمد لله ، بل العرش موجود بالكتاب والسنة ، وإجماع سلف الأمة وأئمتها ، وكذلك الكرسي ثابت بالكتاب والسنة وإجماع جمهور السلف .

وقد نقل عن بعضهم : أن كرسيه علمه ، وهو قول ضعيف فإن علم الله وسع كل شيء ، كما قال : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] .

والله يعلم نفسه ويعلم ما كان وما لم يكن ، فلو قيل : وسع علمه السموات والأرض ، لم يكن هذا المعنى مناسبًا ، لا سيما وقد قال تعالى : ﴿وَلَا يَتُودُّهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥] . أي لا يثقله ولا يكرثه ، وهذا يناسب القدرة لا العلم ، والآثار الماثورة تقتضي ذلك ؛ لكن الآيات والأحاديث في العرش أكثر من ذلك ، صريحة متواترة . / ٥٨٥/٦

وقد قال بعضهم : إن الكرسي هو العرش ؛ لكن الأكثرون على أنهما شيان .

وأما موسى فإن الله كلمه بلا واسطة باتفاق المسلمين أهل السنة وأهل البدعة ، لم يقل أحد من المسلمين أن موسى كان بينه وبين الله واسطة في التكليم لا أهل السنة ، ولا الجهمية ، ولا من المعتزلة ، ولا الكلائية ، ولا غيرهم ، ولكن بينهم نزاع في غير هذا .

والذي رآه موسى كان نارًا بنص القرآن ، وهو أيضًا نور كما في الحديث و النار هي

نور ، والله أعلم . / ٥٨٦/٦

سئل عن رجلين تنازعا في كيفية السماء والأرض هل هما جسمان كريان؟ فقال أحدهما: كريان، وأنكر الآخر هذه المقالة، وقال: ليس لها أصل وردها، فما الصواب؟

## فأجاب:

السموات مستديرة عند علماء المسلمين، وقد حكى إجماع المسلمين على ذلك غير واحد من العلماء أئمة الإسلام: مثل أبي الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي، أحد الأعيان الكبار، من الطبقة الثانية من أصحاب الإمام أحمد، وله نحو أربعمائة مصنف.

وحكى الإجماع على ذلك الإمام أبو محمد بن حزم، وأبو الفرج بن الجوزي، وروى العلماء ذلك بالأسانيد المعروفة عن الصحابة والتابعين، وذكروا ذلك من كتاب الله وسنة رسوله، وبسطوا القول في ذلك بالدلائل السمعية.

وإن كان قد أقيم على ذلك أيضًا دلائل حسابية.

ولا أعلم في علماء المسلمين المعروفين من أنكر ذلك؛ إلا فرقة يسيرة من أهل الجدل لما ناظروا المنجمين، فأفسدوا عليهم فاسد مذهبهم في الأحوال/ والتأثير، خلطوا ٥٨٧/٦ الكلام معهم بالمناظرة في الحساب، وقالوا على سبيل التجويز يجوز أن تكون مربعة أو مسدسة أو غير ذلك، ولم ينفوا أن تكون مستديرة لكن جوزوا ضد ذلك، وما علمت من قال أنها غير مستديرة - وجزم بذلك - إلا من لا يؤبه له من الجهال.

ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

قال ابن عباس وغيره من السلف: في فلكة مثل فلكة المغزل، وهذا صريح بالاستدارة والدوران، وأصل ذلك: أن الفلك في اللغة: هو الشيء المستدير، يقال تفلك ثدي الجارية إذا استدار، ويقال لفلكة المغزل المستديرة فلكة، لاستدارتها.

فقد اتفق أهل التفسير واللغة على أن الفلك: هو المستدير، والمعرفة لمعاني كتاب الله إنما تؤخذ من هذين الطريقين: من أهل التفسير الموثوق بهم من السلف، ومن اللغة: التي نزل القرآن بها، وهي لغة العرب.

وقال تعالى : ﴿يُكْوِّرُ الْقَبْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥] ، قالوا: والتكوير: التدوير ، يقال: كورت العمامة، وكورتها : إذا دورتها، ويقال ٥٨٨/٦ للمستدير كارة، وأصله كورة ، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً،/ ويقال أيضاً: كرة وأصله كورة، وإنما حذفت عين الكلمة كما قيل في ثبة وقلة .

والليل والنهار ، وسائر أحوال الزمان تابعة للحركة ، فإن الزمان مقدار الحركة ، والحركة قائمة بالجسم المتحرك، فإذا كان الزمان التابع للحركة التابعة للجسم موصوفاً بالاستدارة ، كان الجسم أولى بالاستدارة .

وقال تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ [الملك : ٣] ، وليس في السماء إلا أجسام ما هو متشابه - فأما التثليث، والتربيع، والتخميس، والتسديس، وغير ذلك: ففيها تفاوت واختلاف ، بالزوايا والأضلاع - لا خلاف فيه، ولا تفاوت، إذ الاستدارة التي هي الجوانب .

وفي الحديث المشهور في سنن أبي داود وغيره، عن جُبَيْر بن مُطْعَم ، أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ، جهدت الأنفس ، وهلك المال، وجاع العيال، فاستسق لنا، فإننا نستشفع بالله عليك، ونستشفع بك على الله ، فسبح رسول الله ﷺ حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، وقال: «ويحك ! إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، إن عرشه على سمواته هكذا» وقال بيده مثل القبّة، وإنه يئط به أطيظ الرحل الجديد براكبه»<sup>(١)</sup> .

٥٨٩/٦ فأخبر النبي ﷺ أن العرش على السموات مثل القبّة، وهذا إشارة إلى العلو والإدارة . / وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، وسقفه عرش الرحمن»<sup>(٢)</sup> ، والأوسط لا يكون أوسط إلا في المستدير وقد قال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القبّة، والآثار في ذلك لا تحتملها الفتوى، وإنما كتبت هذا على عجل .

والحس مع العقل يدل على ذلك، فإنه مع تأمل دوران الكواكب القريبة من القطب في مدار ضيق حول القطب الشمالي، ثم دوران الكواكب المتوسطة في السماء في مدار واسع، وكيف يكون في أول الليل، وفي آخره؟ يعلم ذلك .

وكذلك من رأى حال الشمس وقت طلوعها، واستوائها وغروبها، في الأوقات

(١) سبق تخريجه ص ٦٧٤ .

(٢) سبق تخريجه ص ٦٧٣ .

الثلاثة على بعد واحد وشكل واحد، ممن يكون على ظهر الأرض علم أنها تجري في فلك مستدير، وأنه لو كان مربعاً لكانت وقت الاستواء أقرب إلى من تحاذيه منها وقت الطلوع والغروب، ودلائل هذا متعددة.

وأما من ادعى ما يخالف الكتاب و السنة فهو مبطل في ذلك، وإن زعم أن معه دليلاً حسابياً، وهذا كثير فيمن ينظر في الفلك وأحواله، كدعوى جماعة من الجهال أنهم يغلب وقت طلوع الهلال لمعرفة وقت ظهوره، بعد استساراه بمعرفة بعده عن الشمس، بعد مفارقتها وقت الغروب، وضبطهم قوس الرؤية، وهو الخط المعروض مستديراً - قطعة من دائرة/ - وقت الاستهلال، فإن هذه دعوى باطلة اتفق علماء الشريعة الأعلام ٥٩٠/٦ على تحريم العمل بذلك في الهلال.

واتفق أهل الحساب العقلاء على أن معرفة ظهور الهلال لا يضبط بالحساب ضبطاً تاماً قط، ولذلك لم يتكلم فيه حذاق الحساب، بل أنكروه، وإنما تكلم فيه قوم من متأخريهم تقريباً، وذلك ضلال عن دين الله وتغيير له، شبيه بضلال اليهود والنصارى عما أمروا به من الهلال، إلى غاية الشمس، وقت اجتماع القرصين، الذي هو الاستسار، وليس بالشهور الهلالية، ونحو ذلك.

والنسيء الذي كان في العرب: الذي هو زيادة في الكفر - الذي يضل به الذين كفروا يحلونهم عاماً ويحرمونه عاماً - ما ذكر ذلك علماء الحديث والسير والتفسير وغيرهم.

وقد ثبت في الصحيحين عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب، صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته»<sup>(١)</sup>.

فمن أخذ علم الهلال الذي جعله الله مواقيت للناس والحج بالكتاب والحساب، فهو فاسد العقل والدين.

والحساب إذا صح حسابه أكثر ما يمكنه ضبط المسافة التي بين الشمس والقمر، وقت الغروب مثلاً، وهو الذي يسمى بعد القمر عن الشمس، لكن كونه يرى لا محالة، أو لا يرى بحال لا يعلم بذلك. / ٥٩١/٦

فإن الرؤية تختلف بعلو الأرض وانخفاضها، وصفاء الجو وكدره، وكذلك البصر وحدته، ودوام التحديق وقصره، وتصويب التحديق وخطأه، وكثرة المترائن وقتهم، وغلظ الهلال، وقد لا يرى وقت الغروب، ثم بعد ذلك يزداد بعده عن الشمس، فيزداد نوراً، ويخلص من الشعاع المانع من رؤيته فيرى حينئذ.

(١) البخاري في الصوم (١٩١٣)، ومسلم في الصيام (٥١/١٠٨٠).

وكذلك لم يتفقوا على قوس واحد لرؤيته، بل اضطربوا فيه كثيرا، ولا أصل له وإنما مرجعه إلى العادة ، وليس لها ضابط حسابي .

فمنهم : من ينقصه عن عشر درجات .

ومنهم : من يزيد ، وفي الزيادة والنقص أقوال متقابلة ، من جنس أقوال من رام ضبط عدد التواتر الموجب لحصول العلم بالمخبر، وليس له ضابط عددي إذ للعلم أسباب وراء العدد، كما للرؤية .

وهذا كله إذا فسر الهلال بما طلع في السماء، وجعل وقت الغيم المطبق شكاً، أما إذا فسر الهلال بما استهله الناس وأدركوه، وظهر لهم وأظهروا الصوت به : اندفع هذا بكل تقدير .

والخلاف في ذلك مشهور بين العلماء، في مذهب الإمام أحمد وغيره، والثاني قول

٥٩٢/٦ الشافعي وغيره، والله أعلم . /

وسئل شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - : عن خلق السموات والأرض ، وتركيب النيرين والكواكب ، هل هي مثبتة في الأفلاك والأفلاك تتحرك بها؟ أم هي تتحرك والفلك ثابت ؟ أم كلاهما متحرك ؟ وهل الأفلاك هي السموات ، أم غيرها ؟ وهل تختص النجوم بالسماء الدنيا ؟ وهل إذا كان الشمس والقمر في بعض السموات يضيء نورها جميع السموات ؟ وهل ينتقلان من سماء إلى سماء؟ وهل الأرضون سبع أو بينهن خلق أو بعضهن فوق بعض ؟ وهل أطراف السموات على جبل أم الأرض في السماء كالبيضة في قشرها ، والبحر تحت ذلك ، والريح تحته؟ وهل فوق السموات بحر تحت العرش؟

### فأجاب :

الحمد لله ، هذه المسائل تحتاج إلى بسط كثير لا تحتمله هذه الورقة ، والسائل عن هذه المسائل يحتاج إلى معرفة علوم متعددة ، ليجاب بالأجوبة الشافية ، فإن فيها نزاعاً وكلاماً طويلاً ، لكن نذكر له بحسب الحال .

أما قوله : الأفلاك هل هي السموات أو غيرها؟ ففي ذلك قولان معروفان للناس ، لكن الذين قالوا إن هذا هو هذا احتجوا بقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَنَا مِنْهَا نَجْرًا وَمَخْرَجًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح : ١٥، ١٦] ، قالوا: فأخبر الله أن القمر في السموات .

وقد قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء : ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس : ٤٠] .

فأخبر في الآيتين أن القمر في الفلك ، كما أخبر أنه في السموات ؛ ولأن الله أخبر أنا نرى السموات بقوله : ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَأَنْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ أَنْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك : ٣ ، ٤] .

وقال : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق : ٦] ، وأمثال ذلك من النصوص الدالة على أن السماء مشاهدة ، والمشاهد هو الفلك ، فدل على

أن أحدهما هو الآخر .

وأما قوله : هل الشمس والقمر تحركان بدون الفلك ، أم حركتهما بحركة الفلك ،  
ففيه نزاع أيضًا ، لكن جمهور الناس على أن حركتهما بحركة الفلك .

وأما قوله تعالى : ﴿ كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ فلا يمنع أن يكون ما ذكره من أنهم  
يسبحون تابعًا لحركة الفلك ، كما في الليل والنهار ، فإن تعاقب الليل والنهار ، تابع  
لحركة غيرهما ، وقوله : ﴿ كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يتناول الليل والنهار والشمس والقمر ،  
كما بين ذلك في سورة الأنبياء . / ٥٩٤/٦

وكذلك في سورة يس : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ .  
وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ  
كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ  
يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٣٧ ، ٤٠] .

فتناول قوله : ﴿ كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ما تقدم الليل والنهار ، والشمس كما ذكر في  
سورة الأنبياء ، وإذا كان أخبر عن الليل والنهار بما أخبر به من أنهما يسبحان ، وذلك  
تابع لحركة غيرهما مثل ذلك ما أخبر به من أن الشمس والقمر يسبحان تبعًا للفلك ،  
وعلى ذلك أدلة ليس هذا موضع بسطها .

وأما النجوم ، فإن الله أخبر أنها زينة للسماء الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ  
الَّذِيَا زِينَةُ الكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات : ٦] ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ ﴾ [الملك :  
٥] ، فقال بعض من قال إن الأفلاك غير السموات ، وإن المراد بالسماء الدنيا هنا الفلك  
الثامن ، الذي يذكر أهل الهيئة أن الكواكب الثابتة فيه ، وادعوا أن تلك هي السموات  
العلی ، وأن الأفلاك هي السموات الدنيا ، ولكن هذا قول مبني على أصل ضعيف ،  
وأيضًا فإن الذي نشهده هو الكواكب .

وقال تعالى : ﴿ فَلَا أُقِيمُ بِالْخَنَسِ . الْجَوَارِ الْكُنَسِ ﴾ [التكوير : ١٥ ، ١٦] والخنوس  
الاختفاء ، وذلك قبل ظهورها من المشرق ، والكنوس رجوعها من جهة المغرب ، فما  
خنس قبل ظهورها كنس بعد مغيبها ، جوارٍ حال ظهورها ، تجرى من المشرق إلى  
٥٩٥/٦ المغرب . /

والشمس والقمر في الفلك ، كما أخبر الله - تعالى - لا تنتقل من سماء إلى سماء .  
وليست السموات متصلة بالأرض ، لا على جبل قاف ولا غيره ، بل الأفلاك مستديرة ،  
كما أخبر الله ورسوله ، وكما ذكر ذلك علماء المسلمين وغيرهم ، فذكر أبو الحسين ابن

المنادي ، وأبو محمد بن حزم ، وأبو الفرج بن الجوزي ، وغيرهم إجماع المسلمين على أن الأفلاك مستديرة ، وقال ابن عباس في قوله : ﴿ كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْحُون ﴾ قال : في فلكة مثل فلكة المغزل ، والفلك في لغة العرب الشيء المستدير ، يقال : تفلك ثدي الجارية إذا استدار .

وقد خلق الله سبع أرضين ، بعضهن فوق بعض ، كما ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ أنه قال : « من ظلم شبراً من الأرض طوقه من سبع أرضين يوم القيامة »<sup>(١)</sup> وقد ذكر أبو بكر الأنباري الإجماع على ذلك ، وأراد به إجماع أهل الحديث والسنة .

وتحت العرش بحر ، كما جاء في الأحاديث ، وكما ذكر في تفسير القرآن ، وكما أخبر الله أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء .

والعرش فوق جميع المخلوقات ، وهو سقف جنة عدن التي هي أعلا الجنة ، كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلا الجنة ، وسقفه عرش الرحمن »<sup>(٢)</sup> .

٥٩٦/٦

والأرض يحيط بالماء بأكثرها ، والهواء يحيط بالماء والأرض ، والله تعالى بسط الأرض للأنام ، وأرساها بالجبال ؛ لثلا تميد ، كما ترسي السفينة بالأجسام الثقيلة إذا كثرت أمواج البحر وإلا ماتت ، والله تعالى : ﴿ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [ فاطر : ٤١ ] .

والمخلوقات العلوية والسفلية يمسكها الله بقدرته - سبحانه - وما جعل فيها من الطبائع والقوى فهو كائن بقدرته ومشيتته - سبحانه /

٥٩٧/٦

(١) البخاري في المظالم (٢٤٥٣) ، ومسلم في المساقاة (١٤٢/١٦١٢) ، كلاهما عن عائشة . وروى الحديث بطرق كثيرة أخرى في الصحاح وكتب السنن .

(٢) سبق تخريجه ص ٦٧٣ .

سئل - رحمه الله - : هل خلق الله السموات والأرض قبل الليل والنهار أم لا؟

فأجاب:

الحمد لله، الليل والنهار الذي هو حاصل بالشمس هو تبع للسموات والأرض، لم يخلق هذا الليل وهذا النهار قبل هذه السموات والأرض، بل خلق هذا الليل وهذا النهار تبعاً لهذه السموات والأرض، فإن الله إذا أطلع الشمس حصل النهار وإذا غابت حصل الليل، فالنهار بظهورها والليل بغروبها، فكيف يكون هذا الليل وهذا النهار قبل الشمس، والشمس والقمر مخلوقان مع السموات والأرض.

وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، قال ابن عباس وغيره من السلف: في فلكة مثل فلكة المغزل.

فقد أخبر تعالى أن الليل والنهار والشمس والقمر، في الفلك، والفلك هو السموات عند أكثر العلماء، بدليل أن الله ذكر في هاتين الآيتين أن الشمس والقمر في الفلك، وقال في موضع آخر: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥، ١٦]، فأخبر أنه جعل الشمس والقمر في السموات.

وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقْدِرُونَ﴾ [الأنعام: ١]، بين أنه خلق السموات والأرض، وأنه خلق الظلمات والنور؛ لأن الجعل هو التصيير، يقال: جعل كذا إذا صيره.

فذكر أنه خلق السموات والأرض، وأنه جعل الظلمات والنور، لأن الظلمات والنور مجعولة من الشمس والقمر، المخلوقة في السموات، وليس الظلمات والنور والليل والنهار جسمًا قائمًا بنفسه، ولكنه صفة وعرض قائم بغيره، فالنور: هو شعاع الشمس وضوءها الذي ينشره الله في الهواء، وعلى الأرض.

وأما الظلمة في الليل فقد قيل: هي كذلك، وقيل هي أمر وجودي، فهذا الليل وهذا النهار اللذان يختلفان علينا، اللذان يولج الله أحدهما في الآخر، فيولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، ويخلف أحدهما الآخر، يتعاقبان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]. بين - سبحانه - أنه جعل لكل شيء قدرًا واحدًا لا يتعداه.

فالشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر وتلحقه، بل لها مجرى قدره الله لها، وللقمر مجرى قدره الله له، كما قال تعالى: ﴿وَأَيَّاهُمْ لَئِلٌ نَّسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ . ٥٩٩/٦ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ ثم قال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠]. أي لا يفوته ويتقدم أمامه حتى يكون بينهما برزخ، بل هو متصل به، لا هذا ينفصل عن هذا ولا هذا ينفصل عن هذا، ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

فالمقصود أن هذا الليل وهذا النهار جعلهما الله تبعًا لهذه السموات والأرض، ولكن كان - قبل أن يخلق الله هذه السموات وهذه الأرض، وهذا النهار - كان العرش على الماء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧].

وخلق الله من بخار ذلك الماء هذه السموات، وهو الدخان المذكور في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضِ أُنِيبَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١١، ١٢].

وذلك لما كان الماء غامرًا لتربة الأرض، وكانت الريح تهب على ذلك الماء، فخلق الله هذه السموات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، فتلك الأيام التي خلق الله - تعالى - فيها هذه . /

وسئل - رضي الله عنه - عن اختلاف الليل والنهار وإن الظهر يكون في دمشق، ويكون الليل قد دخل في بلد آخر، فهل قائل هذا قوله صحيح أم لا ؟

فأجاب - رحمه الله - :

الحمد لله رب العالمين، طلوع الشمس وزوالها وغروبها يكون بالمشرق قبل أن يكون بالمغرب، فتطلع الشمس وتزول، وتغرب على أرض الهند، والصين، والخط، قبل أن يكون بأرض المغرب، ويكون ذلك بأرض العراق قبل أن يكون بأرض الشام، ويكون بأرض الشام قبل أن يكون بمصر، وكل أهل بلد لهم حكم طلوعهم وزوالهم وغروبهم.

فإذا طلع الفجر ببلد دخل وقت الفجر ووجبت الصلاة، والصوم عندهم، وإن لم يكن عند آخرين، لكن يتفاوت ذلك تفاوتاً يسيراً بين البلاد المتقاربة، وأما من كان في أقصى المشرق، وأقصى المغرب فيتفاوت بينهما تفاوتاً كثيراً، نحو نصف يوم كامل.

٦٠١/٦ والله - سبحانه - قد أخبر بأن الشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار كل ذلك يسبح/ في الفلك ، فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠] ، والفلك ، هو المستدير ، كما ذكر ذلك من ذكره من الصحابة والتابعين، وغيرهم من علماء المسلمين، والمستدير يظهر شيئاً بعد شيء، ٦٠٢/٦ شيء، فيراه القريب منه قبل البعيد عنه، والله أعلم. /

آخر الجزء

من كتاب

الأسماء والصفات